المحاضرة الخامسة: الأدب الروسي

تمهيد: كان يُطلق قبل عام 1917م اسم روسيا على إمبراطورية القياصرة الواقعة بين بحر البلطيق غربا والمحيط الهادي شرقا، وعلى هذه الأرض الشاسعة الممتدة في أوروبا وآسيا عاش الشعب الروسي المكوّن من عناصر فنلندية وتتارية وسلافية تضافرت كلها على خلق مزاج الروسي ووسمه بالتعقيد والتناقضات.

1_ باكورة الأدب الروسي: وحتى وقت قريب لم يكن الشعب الروسي شديد الصلة بالقراءة والكتابة وبالأدب المكتوب؛ فقد بنى مجده على التراث الشعبي المروي شفهيا والغني بالفنون الأدبية التي شملت الملاحم والحكايات والأمثال والأهازيج الموسمية والعروض المسرحية من نوع الهرجة والدراما الدينية. لكنّ الإفاقة الأدبية_ الأدب المكتوب_ بدأت بطيئة مع القرن 18م الذي شهد انفتاح روسيا على العالم الأوروبي، وكان لـ**بيار الاكبر**1725م الفضل الكبير في تحديث الدولة وتطوير البنى الاقتصادية لتدارك التخلّف الحضاري، ومع أنّه وجّه اهتمامه الأول إلى خلق دولة قوية بأمّ معنى الكلمة، فقد هيّأ الظّروف الملائمة لازدهار الأدب حين أمر بتبسيط الكتابة، وإنشاء المطابع والمكتبات العمومية، وتأسيس أكاديمية العلوم لنشر المعرفة بين رعيته، فظهر الأدب الذي يشيد بإصلاحاته الجريئة على يد **ستيفان بافورسكي** 1722م، و**إيفان بوزشكوف** 1736م، و**فاسيلي تاتيشيف** 1750م مؤلّف **تاريخ روسيا** في خمسة أجزاء.

على أنّ الانبعاث الحقيقي كان في عهد الملكة **إيليزابيث**1762م، وكان شبيها بالذي عرفه الغرب منذ قرون خلت، فتغيّر وجه الأدب سواء في اتجاهه نحو العناية بالحياة الدينية أو في لغته المطعّمة بمفردات أجنبية، بتغيّر وجه وتقاليد المجتمع الروسي، وكانت الحاجة ملحة لتنظيم أمور اللغة وتحديد العروض والأسلوب النثري، فأخذ فريق من الأدباء على عاتقهم تطوير الوسائل الفنية لإبداع نصوص شعرية ونثرية مماثلة لما عند غيرهم، واشتهر بذلك **أنتيوش كانتمير**1744 بـ**أهاجيه اللاذعة**، و**ميشال لومونوسوف** بمؤلفين: **العروض والنحو الروسي**،و**بيتروفيتش سوماروكوف**1777م الذي كان يرنو إلى مضاهاة **موليير وراسين** في الفن المسرحي.

أمّا في عهد الإمبراطورة **كاترينا الثانية**1796م المعروفة بحمايتها للفلاسفة والعلماء وانشغالها بالأدب وبتربية شعبها؛ فقد ظلّت روسيا كلاسيكية حتى وإن شرحت صدرها للأدب الألماني وغنائيته، والأدب الإنجليزي وعاطفيته، وكذا التيار الفلسفي الذي سرعان ما تنافرت أفكاره وتصادمت بالتقاليد الموروثة عن الأسلاف. وفي هذا العهد تأسّست عدّة مجلات ساهمت في التنديد بالجهل والخرافو والعبودية والاستبداد المسلّط على المجتمع الروسي من أمثال: مجلة النّحلة المثابرة، قليل من كل شيء، الزنبور، وأيّها الزّمان...

وبخصوص الأجناس الأدبية ظهرت منها 1_ **الملحمة** أو القصيدة الانتصارية مع **فاسيلي بيتروف**1799، و**فاسيلي مايكوف**1803... 2_ **الأغنية والحكاية الشعبية** مع **ميشال تشولوكوف** جامع **الأغاني المتنوعة**،

والحكايات الروسية. 3_ **المغنّاة الهزلية** مع **إلكسندر أبليزيموف** مبدع المسرحية الناحجة **الطحان الساحر والخدّاع والكذوب**. 4_ **القصة العاطفية والتاريخية** مع **نقولا كارامزين** 1826م.

2_ الرومانسية: في بداية القرن 19م دبّت حمّى قرض الشعر في الروسيين أجمعهم ودخلت كل الأماكن: من الجامعات إلى الثانويات، ومن الصالونات إلى المدارس العسكرية، والكل لقي في الانشغال بأمر الشعر وإنشاء الأندية الأدبية والمجلات بديلا عن المناقشات السياسية المحظورة. ومن أهمّ ما قامت به هذه المجلات ذات العناوين والاتجاهات المختلفة أنّها فتحت صفحتها للأدب الروسي الناشئ، وخصصّت حيزا لابأس به لنشر بعض روائع الأدب الأوروبي المترجم، فأدت دورا محمودا في إذكاء قرائح المبدعين والنقّاد لما أتاحت لهم الاطّلاع على ما جدّ عند الآخرين من فنون النّظم والنّثر.

وكان أولى بالأدب الروسي المتفتّح أن يتأثّر بأكبر ظاهرة أدبية شعت في تلك الفترة وعمّت آداب أوروبا دون استثناء وهي الرومانسية، ولكن الرومانسية الروسية وإن كانت على اتّصال بأفكار نظائرها الفرنسية والألمانية والإنجليزية فإنّها لم تنشأ نشأة مميزة لافتقارها إلى جمالية واضحة ورواد حقيقيين قادرين على بلورتها والنهوض بها، لذلك بدت مجرد نزعة سطحية لا يربطها بالرومانسية الأوروبية سوى الجنوح إلى العاطفة والحماسة والذوق الأصيل. وقد سار في الاتجاه أول رومانسي في شخص **فاسيلي جوكوفسكي** 1852م الذي كان مثل **رونسار** مجدد الأسلوب الشعري الروسي في لغته وعروضه وأغراضه، فتحوّل الشّعر معه إلى وسيلة تعبير عن العاطفة والذات بالدرجة الأولى، وغدت أعماله القليلة(بضع رسائل هزلية، مراثي، وقصائد عاطفية) قدوة لشعراء عصره الذين انبهروا بمحاسن ألفاظها وجودة أسلوبها وعذوبة موسيقاها.

وقد حمل **اسكندر بوشكين**1837م مشعل الرومانسية والشعر الروسي ببراعة فاق بها **جوكوفسكي**، وما مقارنته بلامارتين روسيا إلا دليل قاطع على شاعريته العظمى، وكان في كل إبداعاته الشعرية بدءً ب**ملحمة روسلان ولودميلا** الرومانسية، إلى قصة **أوجين أونيغين**، وبينهما تواترت القصائد الغنائية على نمط **بيرن** مثل: **الإخوة الصعاليك، نافورة باختشي سارلي، الغجر، مسرحية بوريس غودونوف**...ثمّ تبعه تلميذه **ميخائيل ليرمونتوف** 1841م الذي كان شبيه بأستاذه شديد التأثّر ببيرون، وتطوّر الشعر معه في قصائد: **حجّي أبراك، الشيطان، الهارب** تطورا كبيرا نحو الغنائية الحقّة.

3_ الرواية: تفجّرت عبقرية الشعب الروسي في جنس الرواية في القرن 19م، وكانت بدايتها مع محاولات بوشكين وليرمونتوف، ولكن تطوّرها الحاسم حدث غلى يد **غوغول** الذي رأى في الرواية أحسن وسيلة للتحرّر من تبعية التقليد وأنجعها لإبراز أصالة الأدب الروسي، من أبرز رواياته: **المعطف، تاراس بولبا، النفوس المائتة**.

ومن الكتاب الروائيين الروس الكبار **دوستويفسكي**1881م الذي اشتهرت رواياته بالأوصاف الدراماتيكية للصراعات الداخلية، والتي تعاني شخصياتها من تنازع روحي عنيف بين إيمانهم بالله ومشاعرهم القوية المفعمة بالكبرياء والأنانية. ويصف لنا دوستويفسكي في **الجريمة والعقاب)** 1866م وهي روايته الأكثر إثارة، حالة أحد القتلة وهو يقاسي عذاب الضمير، ثم يسترد البطل حالته الطبيعية، عندما يعترف بجريمته ويرضى بالعقاب الذي يستحقه. ورواية **الممسوس**1871والتي تُعرف أيضًا **بالأبالسة**، يصف لنا فيها الكُتّاب السياسيين المتطرفين. وفي رواية **الإخوة كارامازوف**1880م وهي آخر روايات دوستويفسكي وأعظمها، يتحدث عن رجل شرير يقتله أحد أبنائه الأربعة، والصورة الرمزية التي يعرضها المؤلف عن نجاة الأولاد الآخرين من الخطيئة، هي إيمانه بالقدرة الإلهية على إنقاذ الناس من الخطيئة.

ألَّف الكونت **ليو تولستوي**1910م وهو أكبر كاتب روسي في الأدب القصصي أعظم رواياته في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، ونبذ القيم الرومانسية للبطولة والحب العذري وأظهر بدلاً من ذلك اهتمامًا عميقًا بالمراحل الطبيعية للنمو البشري، كالولادة والزواج والوفاة، وروايته الرائعة **الحرب والسلام**1869 م جلبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسي لروسيا ونيرانه عام 1812م. ولكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب وتكشف عن رغبة تولستوي في حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة، وفي أنّا **كارنينا**1877-1875 هاجم تولستوي الحب الرومانسي باعتباره ضربًا من الانغماس الذاتي وشجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقي وحب الأسرة. أما روايته **موت إيفان إيليتش** فإنها صورة مرعبة لموت رجل، وقبوله لمصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة.

إضافة إلى روائيين آخرين أبدعوا في مجال الرواية والقصة مثل:**إكساكوف** (أخبار أسرة، عاصفة ثلجية...)، **وتورغونيف** (مذكرات صياد، اللقاءات الثلاثة، رودين...)، و**تشيخوف ومكسيم غوركي**...

4_ المسرح الروسي: كان المسرح الروسي أقل قوة وأصالة من جنس الرواية والقصة، وقد برز نجمه بعد أفول نجم الدراما الرومانسية في نهاية الأربعينيات وظهرت المأساة التاريخية والوطنية، وكان **بوشكين** قد مهّد لنشأتها عندما كتب سنة 1825 مسرحية **بوريس غودونوف** التي أحيا فيها على طريقة شكسبير ودون احترام القواعد الكلاسيكية ماضي روسيا في عهد القيصر بوريس وصراعه مع ديمتري على العرش. وقد ازدهرت أيضا **ملهاة الطباع** التي ألفى فيها المسرح الروسي بعد محاولات **فونفيزين** الناجحة أثناء القرن 18م طريقة نحو الإبداع الأصيل مع أول باكورة تمثّلت في مسرحية **شقاء ذي العقل** لإ**سكندر غربيويدوف**، وكانت المراقبة السياسية لها بالمرصاد، فمنعت من الطبع زمنا طويلا. ولاقت مسرحية **المفتش العام لغوغول** معارضة المراقبة الشديدة إلى أن سمح لها بالعرض المسرحي سنة 1836م، لكن المسرحي الفذ **إسكندر أوستروفسكي** الذي وقف جهده على المسرح وحده وكتب أكثر من خمسين ملهاة نثرية في معظمها وبلغ فيه ذروة المجد والشهرة ما بين سنوات 1860/1856م، وقد بنى دسائس مسرحياته

على دراسة أخلاق وتقاليد الفئات الاجتماعية كالتجار والموظفين وعجائز الأرياف... مثلما هو الأمر مع **المفلس، والعاصفة، والغابة، الذئب والنعاج**...

مع حلول القرن 20م دخلت روسيا التاريخ المعاصر بثورة أكتوبر التي طحنت في رحاها النظام القيصري البائد وقضت على معالم الاستبداد والإقطاع والجهل والتخلّف، فتحوّل على إثرها المجتمع الروسي تحوّلا جذريا، وسايره الأدب في ذلك بأغراض واتجاهات جديدة مثل التغني بالثورة الاشتراكية في أشعار **بلوك، ومايا كوفسكي**، ووصف الحرب الأهلية في روايات **بابل، وإيفانوف، وفادييف**، والإشادة بالإنجازات الاقتصادية في روايات **غلادكوف، شولوخوف، وليونوف**...

المصادر والمراجع:

- **جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.**
- **فؤاد المرغي، المدخل إلى الآداب الأوروبية، منشورات جامعة حلب، سورية، (دط)، 1992.**
- **بديع حقي، قمم في الأدب العالمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، (دط)، 1987.**